3 الآفاق التي يفتحها القرآن الكريم للبحث النفسي

توفيق محمد عز الدين

- أبحاث ندوة علم النفس القاهرة، 1989م؛ المعهد العالمي للفكر الإسلامي (1413هـ/1993م)، ص 25–51، [27 صفحة من القطع المتوسط].
- لغة البحث (الكتاب): اللغة العربية.
- مجال البحث (الكتاب): تأصيل علم النفس، البحث النفسي كما يدفع إليه القرآن الكريم.

❑ ❑ ❑

يوضح الباحث هدف دراسته بأنها عبارة عن تفسير لآيات قرآنية تناولت الظاهرة الإنسانية في جانبها النفسي أو تناولت النفس الإنسانية وأحوالها.

ويشير الباحث إلى أن توظيف العلوم الإنسانية والطبيعية إلى جانب العلوم الشرعية واللغوية سيؤدي إلى فهم أوسع وأعمق لآيات الكتاب الكريم.

ثم يستشهد بمحاولات سابقة لأبي حامد الغزالي في «إحياء علوم الدين» وفي «جواهر القرآن»، وللفخر الرازي في «مفاتيح الغيب» وللبيضاوي في «أنوار التنزيل» وللزركشي في «البرهان»، . . . إلى أن يصل إلى العصر الحديث ليتكلم عن صادق الرافعي وعبد الرزاق نوفل ووحيد الدين خان وخالص جلبي. ثم ينظر في فريق آخر ينكر هذا الاتجاه ابتداءً بأبي حيان الأندلسي ومروراً بالشاطبي ومحمد رشيد رضا ومحمود شلتوت ومحمد دروزة وأمين الخولي وعبدالحميد المحتسب.

ورغم وجود الفريقين إلا أن الباحث يرى أن هذا الاختلاف شيء إيجابي ينطلق من الغيرة على كتاب الله وتحري الصواب عند تفسيره.

ويرى الكاتب أن القرآن الكريم لم يقف محايداً أمام الظواهر الطبيعية والإنسانية بل تحدث عنها مبيناً العلاقة بين أسبابها الطبيعية والغيبية، مما يفرض ضرورة استمرار التفسير الإسلامي لهذه الظواهر. فالقرآن ليس كتاب علم ـ فهو أشمل وأعم ـ ولكن العلوم هي التي في خدمة أغراضه، ومن الضروري في الوقت الحاضر أن يرى العالم صورة أخرى للعلاقة بين الدين والعلم.

وبعد هذه التوطئة الطويلة يدخل الباحث في إطار بحثه ليبدأ بمعنى كلمة (نفس) في القرآن الكريم ويراها أنها من الألفاظ المشتركة في القرآن الكريم التي يعرف المقصود منها في كل موضع حسب سياقها من الآية شأنها شأن كلمة الهداية، الدين، الصلاة، الموت والحياة... إلخ.

ويرى الباحث أن كلمة «النفس» قد وردت في القرآن الكريم بمعاني عدة، يذكر منها تسعة معاني، ويدلل على كل منها بآيات قرآنية، نذكرها أي هذه المعاني التسعة باختصار شديد من غير تدليل:

- ذات الشيء وحقيقته، ونفس الإنسان بهذا المعنى جملته من الجسم والروح.
- الروح التي بها الحياة فإذا فارقته حل به الموت.
- مكان الضمير وبهذا تضاف لله وللإنسان.
- معنى في الإنسان يوجهه إلى الخير والشر.
- معنى في الإنسان به يكون الإحساس والإدراك مرتبطاً بيقضة الإنسان دون نومه.
- صيغة الجمع لتبادل الشيء.
- الرجل والمرأة جنسه أو قبيلته.
- لغرض نحوي أو بلاغي وهنا تأتي الكلمة مضافة لله أو للإنسان
- شخص معين بذاته (كآدم مثلاً).

ويرجع الباحث هذه المعاني التسعة إلى معنيين رئيسين:

عام: وهو النفس بمعنى الإنسان ويقابل في القرآن (الآفاق).

خاص: بمعنى الروح وتقابل في القرآن (الطين) أو (الجسد).

ثم يدخل الباحث في الأمر الرباني للتفكر بالنفس كما جاء في نصوص القرآن الكريم، ويرى أن الآيات القرآنية في هذا السياق: مرة ترشد إلى نظر عمودي تقرأ النفس من خلاله أطوار خلقها ومراحل حياتها، ومرة ترشد إلى نظر أفقي يقف من خلاله الإنسان على أعضاء جسمه ووظائفه، ويدلل الباحث على كل نظر منهما بآيات قرآنية ويشرح دلالاتها.

وبرغم الأمر القرآني بالنظر في النفس، إلا أن القرآن الكريم - كما يرى

الباحث – لم يحدد وسيلة هذا التفكير وإنما حدد الغاية منه وهي: المعرفة قصد التسخير والاعتبار ليعطي العقل تفويضاً لاختيار أنسب الوسائل.

ومن هنا تكون العلوم الطبيعية والإنسانية مرشحة معاً لاستكشاف آياتها في الجوانب الفسيولوجية والعقلية والروحية وعلاقة هذه الجوانب بعضها ببعض.

* ثم يذكر الباحث أمرين قرآنيين بالتفكر أو النظر بالنفس ويردف طريقة عملية لإمتثال كل أمر منهما كما ورد في القرآن الكريم:

- فالقرآن الكريم يأمر بتزكية النفس، ويرى الباحث أن هناك ارتباطاً بين الأمر بالتفكر في النفس والأمر بتزكيتها ذلك أن غاية هذا التفكير ليس في التسليم بوجود الله حسب، بل الوقوف على خلقة هذه النفس. وكجانب عملي تطبيقي لهذا الأمر فإن الباحث يريد من علم النفس البحث في الخصائص المشتركة بين الناس والفروق بينهم، وأن يبحث في الملكات الجسمية والعقلية والنفسية وكيفية نموها عند الإنسان لتقوم بعد ذلك فروع أخرى من علم النفس لتوظيف هذه النتائج.
- والقرآن الكريم يأمر بحفظ النفس، فالنفس تولد على الفطرة سالمة من أي فساد، فأراد القرآن الكريم حفظ هذه النفس من كل ما يفسدها، كما جاء يأمر بردها إلى الإستقامة والسواء في كل مرة يعتريها المرض والإنحراف. ويرى الباحث أن حفظ النفس يشمل حفظ الجسم والعقل والروح ولكل منها أمراضه وأسقامه.

  وكجانب تطبيقي يرى الباحث أن الصحة النفسية قائمة على التوازن الإنفعالي وهذا ما تبحثه بعض فروع علم النفس، أما الصحة العقلية فهي مشتركة بين العلوم الطبيعية والعلوم النفسية (مشترك). أما الصحة الروحية فهي قائمة على سلامة القلب من أمراض (الكفر- النفاق- الفسوق- العصيان) وهذا شأن العلوم الإسلامية.

* ثم يأتي الباحث بعد ذلك إلى السنن الطبيعية والسنن الاجتماعية، ويرى أن السنن القرآنية ثابتة لا تتبدل وعامة لا تستثني وعادلة لا تظلم، ثم يعرج إلى أمثلة لسنن النفس والمجتمع: منها العلاقة بين ما يصيب النفس وما تفعله،

ومنها العلاقة بين هداية النفس وسعادتها، وبين التقوى وسعة الرزق، وبين الفسوق والهلاك، وبين تغيير النفس وتغيير الواقع، وبين خلق النفس وتكوينها، وبين الفطرة والبيئة، وأخيراً بين النفس والشيطان. وفي كل من هذه العلاقات البينية يدلل الباحث بآيات من القرآن الكريم.

* ثم يفرد جزءاً خاصاً لثلاث علاقات منها (من مجموع الثمانية):

- أولها للعلاقة بين النفس وتكليفها، ويرى أن من سنة الله سبحانه وتعالى أن خلق الإنسان من ضعف، وهذا الضعف يتجلى في أمرين:
  - أولهما محدودية القوة الجسمية وحاجته إلى الطعام والشراب والنوم... إلخ
  - وثانيهما محدودية القوة النفسية ويتمثل في الحدود التي ينتهي عندها الصبر والتحمل لتبدأ انفعالات الخوف والفزع والحزن على تفاوت بين النفوس في ذلك.
- والعلاقة الثانية هي بين الفطرة والبيئة لأن من سنن الله أن كل مولود يولد على الفطرة. ويتساءل الباحث:

  إذا كانت النظرية هي الإسلام فما الذي يوجد في هذه الفطرة بالضبط عند الولادة؟

  ويجيب الباحث بنفسه: أن ما يولد عليه الطفل هو الركن الأول للإسلام والقاسم المشترك بين الكون والإنسان وهو وحدانية الله وربوبيته.
- والعلاقة الثالثة هي العلاقة بين النفس والشيطان وهي - كما يرى الباحث- سنة أخرى من سنن الله في الأنفس. فالصراع الخفي بين النفس الإنسانية والشيطان يجري على مستوى الخواطر والإرادات. وهنا يتلقى القلب ثلاثة أنواع من الاقتراحات:
  - الأول يأتي من أعماق الفطرة
  - والثاني يأتي من البيئة الغيبية (الشيطان)
  - والثالث يأتي من البيئة الاجتماعية (الأبوين أو غيرهما)

* وفي آخر ورقته يدخل الباحث في أحوال الأنفس الإنسانية في القرآن الكريم ويتساءل:

- هل يمكن أن نتحدث عن تصنيف قرآني لعلم النفس ينطلق من أحوال النفس الأربعة المذكورة في القرآن؟
- وهل بالإمكان تجميع جزئيات هذا العلم -علم النفس- لتلتقي في رؤية نسقية قوامها هذه الأحوال الأربعة؟

(والباحث يذكر نفوساً أربعة: أمارة، لوامة، متزكية وزكية، مطمئنة وراضية)

ويبدأ الإجابة عن سؤاليه مبتدئاً بتقسيمات فرويد للنفس ليعقد بعض المقارنات. ويرى الباحث أن الأنفس الأربعة تفرض الترتيب على الإنسان (عند النفس النموذج): فأول حال تكون عليه النفس أمارة بالسوء ثم لوامة ثم زكية ثم مطمئنة. وقد لا يلزم أن تقيم النفس في كل مرحلة حتى تغلب عليها أوصافها، بل توجد النفس التي احتفظت بطهارة الفطرة فكان الغالب عليها الوصف الثاني من أول الأمر ثم الثالث والرابع (مثل الشاب الذي نشأ في عبادة الله ولم تعرف نفسه غلبة السوء).

أما سير هذه الأحوال فليس في اتجاه واحد دائماً، بل في اتجاهين معاً، إذ يمكن أن ترتد النفس من حالة إلى حالة أسوأ منها وكل ذلك في إطار السنن النفسية التي تحدث عنها الباحث في ثنايا ورقته.

ويشير الباحث إلى أنه استخدم مصطلح (الحال) وهو مصطلح تراثي لأنه يشير إلى الإستقرار النسبي لهذه المستويات وتجدد بقائها أو تحولها.

* ثم يأتي الباحث إلى حديث القرآن الكريم عن الحياة النفسية بما فيها من دوافع وإنفعالات وعواطف وعمليات عقلية وقرارات إدارية متوجهة نحو العدل والخير أو نحو الظلم والشر، ويسرد الباحث الكثير من الآيات القرآنية في هذا السياق، ثم يصف بعدها النفس عندما تكون أمارة بالسوء، ويصفها عندما تكون لوامة، وعندما تكون زكية، وأخيراً عندما تكون النفس مطمئنة راضية.

ويجد الباحث/ بعد هذا الوصف التفصيلي والتدليل القرآني/ أن التصنيف القرآني ينتج آفاقاً واسعة للتوسع في دراسة العوامل التي تتفاعل في العقل الإرادي وخطواته بدءاً من الفطرة مروراً بالفكرة ثم الإرادة ثم العزيمة ثم الفعل وأخيراً العادة.

❑ ❑ ❑

عناوين رئيسة:

النفس في القرآن الكريم، أحوال النفس، أسلمة علم النفس، تزكية النفس، النفس البشرية.

❑ ❑ ❑

ملاحظات:

- دخل الباحث بعمق في نصوص القرآن الكريم وخرج بتأملات فكرية تستحق النظر والمتابعة وخاصة من المتخصص في علم النفس.
- عندما تعرض لتعريف النفس، أو مواضع ومعاني ذكر النفس في القرآن الكريم، كان بودي أن يشير الباحث إلى مثل هذه المعاني التي أوردها ابن قيم الجوزية في كتابه (الروح) وفصَّل في هذا كثيراً فقد كان طرح ابن القيم للروح متداخلاً مع مفهوم النفس الذي تحدث عنه الباحث.
- المقارنة التي عقدها الباحث مع (فرويد) في الأنفس غير واردة - برأيي- لأن الموضوع الذي تكلم به الباحث يختلف تماماً عما جاء به فرويد من أبعاد للشخصية ولا يصح المقارنة بينهما. فأهل علم النفس أنفسهم قد أبطلوا ادعاءات (فرويد) ومنهم حتى من كان يعمل معه في ذات المنظور النفسي (التحليل النفسي).

❑ ❑ ❑